سيرة ابن إسحاق

لعله من العجيب حقا أن ننظر الى كتاب ابن هشام الذى يرويه عن ابن اسحق نظرتنا الى كتاب تاريخ حقيقى يؤرخ لحياة الرسول تأريخا يراد منه وجه العلم والحقيقة وحدها .. فثمة أشياء تقف دون هذه النظرة وتجعلنا نحتاط قليلا ونحن نحاول أن نضع هذا الكتاب فى مكانه بين الكتب ..

أول هذه الأشياء أن ابن اسحق المتوفى نحو عام ١٥٢ هـ كان جامعا مبوبا لكل ما رواه من سبقه من الناقلين المحدثين أمثال عروة بن الزبير ووهب بن منبه وابن شهاب الزهرى وشرحبيل بن سعد وعاصم بن قتادة وغيرهم .. ولهؤلاء جميعا أعمال متفرقة فى السيرة ، ومنهم من تناول فترة بذاتها ، ومنهم من اهتم بالهجرة الى الحبشة ، ومنهم من اقتصر على حكاية المغازى ، ومنهم من حكى عن رسول الله (ص) .. وجاء ابن اسحق ليؤلف من هذا كله عملا موحدا ، يجمعه مما تناقله هؤلاء الرواة ، ويبوبه حسب أحداث التاريخ وحسب المكان والزمان ..

ورغم أن كتاب ابن اسحق نفسه ليس تحت أيدينا الا أن رواية ابن هشام لكتابه تبين منهج ابن اسحق وتوضح طبيعة عمله . والواقع أن ابن هشام يحاول أن يتدخل فى كثير من

المواقف لينقد ويعارض ويشرح ويضيف ، فاذا ما أغفل شيئا تصدى السهيلى فى الروض الأنف لبيان خطأ تاريخى أو تصحيح رواية تتعارض مع أحداث الرسالة أو طبيعتها .. فعندما يتحدث ابن اسحق عن فرض الصلاة نرى السهيلى يقول معقبا وناقدا « وهذا الحديث لم يكن ينبغى أن يذكره فى هذا الموضع ؛ لأن أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت فى الغد من ليلة الاسراء . وذلك بعد ما نبىء بخمسة أعوام . وقد قيل : ان الاسراء كان قبل الهجرة بعام ونصف ، وقيل بعام ، فذكره ابن اسحاق فى بدء نزول الوحى ، وأول أحوال الصلاة » ..

وتتكرر هذه الظاهرة كثيرا فى مواضع مختلفة من رواية ابن اسحق . ومعنى هذا انه حصل على كمية كبيرة من الأخبار والقصص وحاول أن يرتبها ويبوبها فنجح فى هذا فى غالب الأحيان ، وجانبه التوفيق فى بعضها فكشف هذا عن طبيعة عمله الذى يقوم على التجميع لا على النقد والتمحيص ومقابلة الرواية باخرى ومحاولة التحقيق اتاريخى ..

ونرى ابن هشام يتدخل كثيرا ليكمل حادثة أشار اليها ابن اسحق اشارة وتركها دون افاضة ، كما فعل فى قصة داحس والغبراء وحروب الأوس والخزرج وغيرها .. وهذا ربما كان يعنى أن ابن اسحق لم ياخذ من الروايات الا ما يقيم هيكل كتابه ، وما زاد عن هذا الهيكل تركه حتى وان كان فى

ذكره ما يلقى الضوء على الأحداث نفسها ، وهذا — كما قلنا — ما حاول ابن هشام أن يتلافاه ويكمله ..

فابن اسحق اذن ليس مؤرخا بالمعنى العلمى لهذه الكلمة، وانما هو جامع ومبوب .. كانت السيرة قبله اجزاء متفرقة ، يروى كل من تناولها ناحية ، فجاء هو ليجمع هذه النواحى كلها فى نهج متسلسل تاريخيا ..

والرواة الذين سبقوا ابن اسحق ومنهم القصاصون وجامعو الأساطير لم يقصدوا — كما بينا من قبل — التاريخ لذاته ، وانما كان عملهم — الى حد كبير — محاولة لاشباع نهم العرب الى القصص ، وهم قد اختاروا شخصية محمد (ص) بطلا لقصصهم استعاضة به عن أبطال الجاهلية الذين يقصون عنهم لأنهم وجدوا فى شخصيته وفاء بملامح البطل العربى وسماته ، كما كانوا يحاولون أيضا اشباع نهم المسلمين الى الحديث عن رسولهم فى وقت منع فيه الخلفاء الصحابة من تدوين الحديث وجمعه اكتفاء بالقرآن الكريم .. ويكفى أن يكون فى طليعة هؤلاء الرواة واحد كوهب بن منبه أكبر جامع لأساطير اليمن لنرى فى هذا الدليل على ارتباط السيرة فى أذهان هؤلاء الرواة بالقصص ..

وحين جاء ابن اسحق فجمع كل هذا مؤلفا بينه ، ومكونا منه أول كتاب متكامل فى السيرة ، تعرض للاتهام والحملة عليه،

فنجد عالما جليلا كالامام مالك بن انس ، وآخر كهشام بن عروة ابن الزبير يكاد أن يخرجانه من حظيرة المحدثين أهل الصدق والثقة ، ولا يدخران وسعا فى اتهامه بالكذب والدجل الى جانب اتهامات أخرى كالنقل عن غير الثقات وصنع الشعر ووضعه فى كتابه وأخطاء فى الأنساب وغيرها ..

ونحن نرى أسبابا كثيرة لأمثال هذه التهم فيما يرويه ابن اسحق من قصص تخرج عن حد المعقول ، وتتعارض وطبيعة محمد البشرية وحقيقة رسالته كل التعارض .. فالصورة التى نخرج بها عن محمد من كتاب ابن اسحق أقرب الى الصورة الأسطورية منها الى الصورة التاريخية .. فهو يدعو ربه فينزل المطر ، وحين يجلس تظله شجرة الأنبياء ، وحين يسير تمنع عنه الشمس غمامة ، الى آخر ما فى الكتاب من معجزات ..

وعذر ابن اسحق كما قلنا انه يجمع روايات شتى يرويها اكثر من راو ، وفيهم من يتعشق الأساطير ، وفيهم من يكتب الأساطير . ويحاول الخطيب فى كتابه « تاريخ بغداد » وابن سيد الناس فى كتابه « عيون الأثر » أن يدافعا عن ابن اسحق دفاعا حارا ، ولكن دفاعهم لا يستطيع أن يمحو هذه الحقائق الموجودة فى كتابه .. الا أن كلمة الفصل تأتى على لسان أحد المدافعين عنه اذ يقول ابن عدى : « ولو لم يكن لابن اسحق من الفضل الا انه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شىء للاشتغال بمغازى رسول الله (ص) ومبعثه ومبتدأ الخلق ،

لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن اســـحق » .. فكتابه بهـــذا الاعتراف كتاب يصرف الناس عن ذكر ملوك الجاهلية وابطـــال اساطيرها الى ذكر رسول الله وغزواته .. ومعنى هذا أن ابن اسحق انما كان يجمع قصصا عن الرســـول ويرتبهـــا ويبوبها ويقدمها لنا متكاملة لتقف أمام سير ملوك العرب وابطالهم وتتفوق على كل هذه السير بما لمحمد من لصوق بقلوب العرب والمسلمين، وبما لأحداث حياته من اهمية فى عالم المسلمين يبـــرزها الدين والعصبية والهدف المشترك .. ولعلنا بعـــد هذا نرتاح الى أن كتاب ابن اسحق لم يقصد منه الى التاريخ ، وانما قصد منـــه الى جمع القصص كما هى طالما استطاعت أن تؤدى دورا فى الكشف عن جوانب البطولة فى حياة الرســـول ، وابراز ملامح الكفاح فى كل مراحل حياته ..

* * *

ثانى الأشياء التى تواجهنا ونحن نبحث مكان كتاب ابن اسحق بين الكتب هى طريقة تأليفه للـــكتاب .. وابن اسحق يبدأ كتابه بالتنويه بأنه يعرض فيه لسيرة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .. فيبدأ بذكر نسب الرسول حتى آدم.. ويحدد موضوعه بأنه ما يتعلق بحياة الرسول ونسبه ، ويلقى على احداث سيرته من الأضواء ما يجلى رسالته ويظهر أهميـــة دعوته وتطورها . ويأتى ابن هشام فيأخذ مما جاء به ابن اسحق حسب منهج خاص وضـــحناه ، ويبين منـــه أن الأمر تتبع لأهم

الشخصيات التى جاءت فى نسب الرسول . وهو تتبع لا يخضع للتاريخ بقدر ما يخضع للأهمية الأسطورية . فاننا لنراه يقفز قفزا من تتبع نسب الرسول ومحاولة معرفة مكانته بين العرب، الى أحداث تقع فى اليمن فتؤذن بموت ملكهم ربيعة بن نصر ودخول الحبشة الى اليمن ، ثم عودة الملك على يد سيف بن ذى يزن ، ثم انقطاعه بظهور رسول الله فى مكة .. والأحداث كما ترى أسطورية الدلالة ، أسطورية التأليف ، وهى تتعلق بملوك اليمن الذين تعلم مما ذكرنا عنهم من قبل أنهم كانوا المادة الأسطورية الأولى عند رواة الأساطير العربية .. ثم تستمر الحكايات عن دخول اليهودية الى اليمن ، فدخول النصرانية ، فيوم الفيل ، وتقف عند عبد المطلب قليلا . ثم تستأنف القصة سيرها حول أمة الفرس باليمن ، فبدء ظهور الأصنام وعبادتها ، ثم عود الى النسب فيقف وقفة طويلة عند عبد المطلب بن هاشم ويجره هذا الى الحديث عن زمزم .. وهنا تبدأ سلسلة أخرى من الأساطير حول البيت ومن تداولوا على السكنى حوله من جرهم الى كنانة وخزاعة الى قريش .. ومن زمزم أيضا يتطرق الى حياة عبد المطلب وأولاده الى أن يصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم .. وهذا الحديث كله رغم انه يحاول أن يلبس سمة العلم بما يورد من أنساب الا انه لا يخرج فى شىء عن منهج سبق أن رأيناه عند وهب بن منبه فى كتابه التيجان ، وعند عبيد ابن شرية فى كتاب أخبار ملوك اليمن .. فالسيرة رواية أحداث والأحداث تعتمد على أفراد بذاتهم وحولهم تدور الأساطير ،

تسلم كل أسطورة الى التى تليها .. فاذا ما انتقلنا الى باقى الكتاب رأيناه يتبع نفس الطريقة فهو ينتقل من حدث الى حدث ، ولكل حدث بطل يدور حوله الحديث ويسلم الى الذى يليه فى القصة التالية وهكذا ..

الفرق الوحيد أن وهبا كان يجمع الروايات حول ملوك اليمن بعامة وكأنما يريد أن يصور حضارة اليمن ومجدها عن طريق سرد أساطيرها . وعبيد كان يحكى من أساطير اليمن ما يعطى معنى اسلاميا وما له علاقة بالقصص القرآنى ، أما ابن اسحق فهو يجمع الروايات التى لها علاقة بمحمد كانسان وبمحمد كنبى . واهتمامه بمحمد الانسان جعله يجمع ما له علاقة بنسبه وبيئته وجدوده .. أما عنايته بمحمد النبى فجعلته يعنى بجمع ما له علاقة بالأديان فى الجزيرة من ديانة الحنيفية الى اليهودية ثم المسيحية مع ذكر تاريخ عبادة الأصنام .. وكأنما يحاول أن يرسم صورة للجزيرة قبل محمد .. فاذا ما بدأ فى الحديث عن محمد نفسه فهو بطل أسطورى قد امتزج بشخصية النبى ، تنسب اليه المعجزات والخوارق ، وترسم صورة كفاحه الجاد فى سبيل رسالته معا وفى وقت واحد . وهذا التضارب فى رسم الشخصيات نجده عادة فى أساطير العرب جميعا ، فأنت سرعان ما تحس باختلاط واضح بين شخصية الملك التاريخية وبين صورته الأسطورية التى يوردها القصاصون فى مزيج بين مايعرفه التاريخ وبين ما يخلقه الخيال ..

والتشابه بين كتاب ابن اسحق وبين غيره من كتب القصص العربية لا يقف عند هذا الحد بل هو يمتد الى طريقة سرد القصة نفسها . فهو بعد أن يلم بأحداث قصة يخرج منها الى ما قيل فيها من شعر .. واحساس الناقدين القدامى بزيف هذا الشعر راجع الى اعتبارهم الكتاب تاريخا بينما هو فى واقع الأمر لا يعدو ما كان متبعا فى كتب القصص والأساطير بعامة من انهاء كل قصة بسرد الشعر الذى قيل فيها من أقوال شعراء معروفين، فان لم يوجد فهو شعر ينسب الى أحد ابطال الحادثة نفسها ، أو البطل الأصلى للحادثة .. وفى حادثة واحدة وهى موت عبد المطلب ابن هاشم يذكر ١١ بيتا لصفية ابنته و ٧ ابيات لبرة ابنته و ٨ ابيات لعاتكة ابنته و ٩ أبيات لأم حكيم البيضاء ابنته و ٧ أبيات لأميمة ابنته و ١٠ أبيات لأروى ابنته و ٤١ بيتا لأبى لهب عبد العزى ابنه بينما يذكر لمطرود بن كعب فى نفس الحادثة ٧ أبيات .. وليس معقولا أن كل أولاد عبد المطلب نساء ورجالا يقولون الشعر .. كما أن الشعر الذى أورده ابن اسحق ليست له قيمة فنية توجب اثباته ، انما الأمر فيما نرى تقليد يتبعه ابن اسحق نقلا عن كتب الأساطير والحكايات ، وهو لا يقتصر فى استعماله على ما له علاقة بتاريخ العرب الأسطورى القديم وحسب ، وانما يتجاوزه الى ما يورد من قصص تتعلق بشخص النبى وأحداث حياته وكفاحه ..

الاختلاط اذن بين الصورة التاريخية والصورة الأسطورية،

والسير فى تأليف القصة على النهج المعروف عن أصحاب الأساطير العربية يكون منهجا للكتاب يثبت علاقته الشديدة بالمثل التى احتذاها ابن اسحق وهى ما سبق من كتب ككتاب وهب وكتاب عبيد ..

ومعنى هذا أنه فهم سيرة محمد (ص) كما فهم وهب سيرة الحارث الجرهمى مثلا أو كما فهم عبيد سيرة تبع الأوسط مثلا من حيث البناء والتركيب ، ومن حيث منهج الرواية والتأليف.. وهذا يؤكد أن كتاب ابن اسحق أقرب الى العمل القصصى منه الى العمل التأريخى العلمى القائم على البحث والمقارنة ..

* * *

ثالث الأشياء التى تحدد مكان كتاب ابن اسحق ، موقفه مما يجمع من الأحداث وطريقة ربطه بينهما .. فهو كما قلنا يحكى دخول اليهودية بلاد العرب ، ثم دخول المسيحية ، ثم نشأة عبادة الأوثان ، ثم قلق أهل الجزيرة من قريش من كل هذه الأديان ومحاولتهم البحث عن دين الحنيفية .. وكل مايرويه حول هذه الأديان يغلب عليه الطابع الأسطورى ، وان كان يجمعه خيط واحد هو التمهيد لظهور الدين الجديد .. فاذا ما أوشك أن يتحدث عن الدين الجديد فهو يورد مزيجا اسطوريا جديدا يعلن دور هذه الأديان كلها فى التنبؤ بمحمد واعداد الناس لاستقبال رسالته ودينه ..

فاليهود تنبأوا بمحمد منـذ تبع الأوسط حين قال له حبران من اليهود أن يكف عن المدينة فلا يهدمها لأنها مهاجر نبى يظهر فى مكة ، ومنـذ قصة بحيرى اليهودى التى امتلأت بأحـداث أسطورية واضحة كالظل والغمامة والشجر التى تسخر للصبى الصغير محمد أثناء رحلته مع عمه أبى طالب . ودور اليهود فى التنبؤ كبير ومتعدد ..

أما المسيحية فهناك قصة لا تقل فى تأليفها وسياقها ومـا فيها من أحداث أسطورية عن قصة بحيرى ، تلك هى قصـة نسطور فى رحلة محمد مع ميسرة فى مال خديجـة ، وهى تضم أحداثا تؤكد نبوءة نسطور برسالة محمد كالشجرة التى وجدت خصيصا لتظل محمد ، وكالملكين يظلانه اذا سار .. وهنـاك دور ورقة ابن نوفل الذى يكثر حوله الشعر وتكثر الحكايات . وتأتى قصة سلمان وكيف سأل رجال الدين النصارى ، بل وكيف التقى بالمسيح نفسه مما يضفى على أحداث قصته جوا خياليـا أسطوريا يقود كله الى تنبؤ النصارى بمحمد ورسالته ..

أما الوثنية فتنتشر الحكايات عند ابن اسحق حول كهـان العرب وما كانوا يتلقون من علم بالغيب عن طريق الشياطين. ثم ما سبق ظهور محمد من رجم للشياطين بالنجوم مما جعـل أكثر الكهنة يؤكدون ظهور نبى .. بل ان سطيحا وشقا الراهبين يتنبآن بمحمد منذ ربيعة بن نصر ملك اليمن ، ويخبرانه بزوال

ملك اليمن على يد الأحباش، ثم عودته على يد سيف بن ذى يزن؛ ثم انقطاعه بظهور النبى محمد (ص) من شمال الجزيرة ..

والمسألة بهذه الصورة تكاد تكون تنافسا بين أديان الجزيرة فى الادلال بالفضل فى معرفة الرسول والتنبؤ به وتنبيه الأذهان الى رسالته ..

وتقبل ابن اسحق لكل هذه الروايات ــ وواضح ان كل واحدة منها لها مصدر بذاته ــ انما يعنى حياده الكامل تجاه كل هذه الأديان .. فهو أولا لم يحاول أن يناقش أى رواية من هذه الروايات وان كانت واضحة الوضع مليئة بالأساطير والأحداث التى يغلب عليها الخيال .. وهو ثانيا يجمع كل القصص التى تمهد لظهور محمد سواء كان مصدرها يهوديا أم نصرانيا أم وثنيا .. وسواء أدل بموقف اليهود أم بموقف النصارى أم بموقف الوثنيين .. والذى يهمه منها كلها أنها ارهاصات بمحمد ورسالته بصرف النظر عن مصدرها أو دلالتها أو أهميتها .. وهو ثالثا يقبل المتناقضات التى فى كل هذه الروايات التى تحاول كل منها أن تحط من الأديان الأخرى وترفع من قدر دينها هى .. فالروايات اليهودية تعلن أن اليهود يعرفون محمدا اذ هو مذكور فى كتبهم بصفاته وعلاماته ، واليهود مؤمنون يصلون الخمس أو هكذا يروى ابن اسحق فى صفحة ٢٢٧ من جزئه الأول .. والمسيحيون يتناقل قسسهم النذر بظهور محمد كعلامة لخلاص البشرية وظهور الدين الصحيح ، بينما يظهر عيسى بنفسه ليخبر

سلمان بهذه النبوءة أو هكذا يذكر ابن اسحق فى صفحة ٢٣٦ من الجزء الأول .. أما أصحاب الوثنية فهم يكفرون الديانتين ، فعندهم أن اليهود يعبدون عزرا وأن النصارى يعبدون عيسى ، بينما هم — اى الوثنيون — يعبدون الملائكة ..

وهذا التناقض نشهده فى اكثر من موضع بعد هذا وقبله ، فالروايات تارة تحط من قدر دين منها وتارة ترفع من شأنه ، وابن اسحق يجمع هذا كله بدون تفرقة ..

وهذا كله يعنى أن ابن اسحق لم يكن له موقف علمى واضح ، بمعنى انه لم يحدد لنفسه حدودا يقبل فيها الرواية أولا يقبلها .. كما لم يجعل لتقبله للمتناقضات حدا . بل لم يحاول أن يناقش أيا من الروايات التى ينقل .

انما ابن اسحق صاحب موقف آخر ، هو الموقف الوجدانى .. فالذى لا شك فيه أن ابن اسحق كان مؤمنا بمحمد مأخوذا بشخصيته ، والذى لا شك فيه ايضا أن حسه الفنى كان مرهفا يتذوق القصة ويستطيب ما بها من مواضع املاها الخيال وتولدت من الحب أو من دعواه ، ومن الاخلاص أو محاولة الظهور بثوبه. فقبل ابن اسحق كل ما يرضى وجدانه مما يكسب سيرة محمد الجو الفنى الذى يحب ، والذى يجعل منها ما هو أروع من كل سيرة قبلها .. ولعل هذا هو السر فى انه لم يرفض اى رواية ، ولعل هذا هو السر فى انه لم يقف لحظة شاكا أمام الحكايات

الغريبة التى تروى عن معجزات محمد والتى تخرج محمدا عن طبيعة رسالته وحقيقة دوره .

على هذا الضوء يمكننا أن نفهم عمل ابن اسحق فلا نظلمه كما فعل الامام مالك بن أنس الذى لم يرضه عمله اذ نظر اليه نظرة العالم الباحث عن الحقيقة التاريخية والعلمية .. وانما نضع عمله فى المكان اللائق به ، أعنى فى قمة الأعمال القصصية الاسلامية .. والمثل المتكامل الذى يقدم الصورة الثالثة من صور عصر التجميع فى الرواية العربية .. بل نستطيع أن نقول أيضا انه يمثل وحده مرحلة الانتقال بين الرواية العربية قبل الاسلام بمثلها وأبطالها ، والرواية العربية الاسلامية التى تطورت ونمت ووصلت الى قمتها فيما بعد .. والفضل فى هذا كله يرجع الى حس ابن اسحق المرهف الذى استطاع أن يستخرج من كل الروايات حول محمد هذه السيرة المنظمة المنسقة التى تحوى تاريخا قصصيا جميلا لحياة محمد صلى الله عليه وسلم .. وان كان نصيبها من التاريخ والحقيقة العلمية لا شأن لنا به .

* * *